اندلاع الثورة التحريرية بالقطاع الوهراني في الفاتح نوفمبر1954م: الصعوبات والتحديات.

د . محمد بليل*

مقدمة: لقد عرفت الجزائر أوضاعا مأسوية في شتى الميادين عقب الحرب العالمية الثانية، التي دفع فيها الجزائريون أرواحهم في سبيل تحرير فرنسا من النازية، ولكن فرنسا لم تحاول أن تعترف بحق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، حيث عرفت الساحة الوطنية عقما سياسيا بسبب انشغال الأحزاب الجزائرية في ترتيب بيتها الداخلي، بهدف التموقع الشعبي.

وكانت أبرز تلك الأحزاب التي مثلت التيار الاستقلالي، ممثلة في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي شهدت صراعا داخليا بين أنصار رئيس الحركة "مصالي الحاج" والمجلس الوطني للحركة (المركزيين)، بينما ظلّت نخبة من شباب المنظمة الخاصة التي تأسست سنة 1947م تنتظر إعادة هيكلة الحزب، لكن ذلك لم يجد نفعا، فتحرك هؤلاء الشباب من مختلف مناطق الوطن جماعيا لمباشرة الضغط على الأطراف المتصارعة، لكن اكتشاف المنظمة الخاصة ومحاولة تفكيكها، دفع قيادة المنظمة إلى السباق مع الزمن لتفجير الثورة عبر التراب الوطني، غير أن عمالة وهران ظلّت تفتقر للإطارات وتعاني نقصا فادحا في المعدات والأسلحة وصعوبات أخرى؛ لكنها كانت مع موعد اندلاع الثورة المسلحة.

فما هي إرهاصات العمل المسلح بالقطاع الوهراني؟ وفي ماذا تمثلت صعوبات العمل المسلح للأفواج الأولى؟ وما هي الإمكانات التي راهنت عليها قيادة الثورة بالمنطقة؟ وكيف تجاوزت المنطقة الخامسة هذه الصعوبات؟

1- التحضيرات الأولية لاندلاع الثورة بعمالة وهران: إن منطقة الغرب الجزائري التي كانت تعرف إداريا بعمالة وهران، كانت مأهولة بالسكان الأوروبيين، لأن الاستيطان وجد ضالته فيها بوجود أراضي زراعية واسعة ويد عاملة جزائرية رخيصة، حيث كانت الأوضاع العامة هادئة بالنسبة لأجهزة الأمن الاستعمارية، رغم وجود نشاط سياسي واسع للأحزاب الوطنية ومنها حركة الانتصار للحريات الديمقراطية التي نجحت في التغلغل داخل أوساط الجماهير العريضة، والريفية منها على وجه الخصوص.

*- أستاذ محاضر ب في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة ابن خلدون- تيارت.

وكان لحزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية نفوذا واسعا بمناطق عدّة بالعمالة، كتلمسان معقل زعيم الحزب ووهران ومستغانم وغليزان وعين تموشنت وتيارت، كما كان للفرع شبه العسكري "المنظمة الخاصة" خلايا بالمنطقة بتمثيل قوي، تمثل في أحد زعمائه وهو ضابط صف سابق في الجيش الفرنسي المدعو "أحمد بن بلّة"، والذي أعدّ الهجوم على بريد وهران يوم 04 أبريل 1949م بهدف تمويل المنظمة الخاصة بالأموال والأسلحة[1].

عرفت المنطقة نشاطا سياسيا قويا نظرا لوجود مناضلين يؤمنون بالحرية واستقلال الجزائر، وشاركوا كغيرهم من الجزائريين في تعميق الوعي الوطني لدى لجماهير الجزائرية، ردا على القانون الخاص الذي أصدره البرلمان الفرنسي في 20 سبتمبر1947م، الذي حاول من خلاله المشرع الاستعماري أن يساوي بين الأغلبية الجزائرية والأقلية الأوروبية ويكرس فرنسية الجزائر، والتأكيد على أنها تتكون من "ثلاثة عمالات فرنسية"، وأصبح للجزائر هيئتين انتخابيتين بـــ120 نائبا، ينتخبون بالنصف، فالهيئة الانتخابية الأولى تضمّ 464000 منتخب رجال ونساء و58000 جزائري يخضعون للقانون الفرنسي، والنصف الأخر ضمّ 1300000 جزائري من جنس الذكور[2].

وازدادت معاناة الجزائريين لعدم تطبيق هذا القانون، خاصة ما تعلق منها بالهوية والشخصية الجزائرية كتعليم اللغة العربية والمساواة في الحقوق السياسية وتدهور أوضاع الفلاح الجزائري، حيث أحسّت النخبة الجزائرية بخضوع السياسة الاستعمارية للمستوطنين. وأنها يئست من السلوك السياسي لفرنسا، وأن العمل السياسي الذي تمارسه عديم المفعول، "ورأوا في هذه السياسة خطرا يهدد فكرة استقلال الجزائر من براثين الاستعمار"[3].

خرجت مجموعة من المناضلين الثوريين المنتمين إلى المنظمة السرية تدعو الطرفين المتصارعين إلى التعقل وإعادة اللحمة إلى الحركة، لكن تمسك الأطراف المتصارعة بمواقفها نتج عنه حدوث شرخ كبير داخل الحركة الاستقلالية، فوجد شبان المنظمة الخاصة أنفسهم أمام مصير مجهول متجهين نحو طريق مسدود؛ وبخاصة بعد اكتشاف بعض عناصرها في حادثة 1950م التي كادت أن تعصف بالفكرة الاستقلالية كلها، وهو ما اعتبر خطأ فادحا لا ينبغي تكراره[4].

في هذه الظروف الصعبة قرر قادة المنظمة الخاصة بمشاركة بعض أعضاء اللجنة المركزية في مارس 1954م عقد اجتماع خاص بهدف إنقاذ الحزب من التمزق بين راديكالية مصالي الحاج وديموقراطية اللجنة المركزية، بتكوين لجنة ثورية ترمم الصدع الحاصل في الحزب.

وحسب العديد من الدراسات فإن هذه اللجنة الثورية للوحدة والعمل تراوح عدد أعضائها ما بين أربعة وستة أفراد، منهم بوضياف وبن بولعيد من المنضمة الخاصة ودخلي وبوشبوبة من المركزيين، وذلك بعد محاولات الصلح مع مصالي في فرنسا أجراها بوضياف بمشاركة ديدوش مراد في باريس. وبعد اقتناع بوضياف بعدم جدية مصالي بتفجير الثورة ومحاولته السيطرة على الحزب وبالتالي تمزيقه، ومحاولاته إقصاء أعضاء اللجنة المركزية المعارضين له. انتقل إلى الجزائر ليعقد اجتماعًا تشاوريًا مع بعض أعضاء المنظمة الخاصة من أمثال بن مهيدي ورابح بيطاط في مارس 1954، لتنضج فكرة الحياد وتأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل في 23 مارس 1954م.

وحاولت هذه الهيئة العمل على تهيئة الرأي العام الجزائري للعمل الثوري والتواصل مع أعضاء المنظمة الخاصة المطاردين من قبل الأجهزة الأمنية الفرنسية، ونشر الفكر الثوري في أوساط الجماهير الجزائرية[5].

ولكن هذه اللجنة لا تستطيع مواصلة العمل الثوري بسبب تردد المركزيين ومعارضة المصاليين لأي عمل ثوري في الظروف الراهنة، فاتجهت العناصر الثورية للمنظمة الخاصة إلى التحرك وطنيا للاتصال بالمناضلين المخلصين والإعداد للعمل الثوري، ولهذه الغاية عقد أعضاء المنظمة السرية اجتماعا خاصا بهم في أواخر جوان 1954م بحي المرادية (كلو سالومبيي سابقا) لتحديد مواقفهم من الاتصالات مع أطراف الحزب المتصارعة وإيجاد آليات تفجير الثورة المسلحة.

وفي مرحلة لاحقة تم توسيع الاجتماع إلى مناضلين آخرين كملاحظين من قيادات أخرى، عبر التراب الوطني من خلال شهادة الأخ المجاهد "بلحميتي محمد المدعو بن ذهيبة" ممثلا عن منطقة "الظهرة" بمستغانم الذي ذكر بأنه حضر اجتماعا موسعا ببلكور بالعاصمة لهذه الهيئة الموسعة أيام 12و13و14 جويلية 1954م كملاحظ، حيث تمّت مناقشة عدّة قضايا منها الخلافات داخل حركة الانتصار من أجل الحريات الديموقراطية، وكيفية التحضير للأعمال الثورية، ويبدو لنا أن هناك خلطا في التواريخ، لم نستطع فهمه في الغرض من هذا اللقاء الذي تحدث عنه المجاهد بلحميتي في أكثر من موضع، هل القصد منه مجموعة 22، التي أكدت جل المصادر والمراجع أنها انعقدت في أواخر جوان أو مؤتمر المركزيين الذي انعقد في أواسط أوت 1954م، ردا على مؤتمر المصاليين المنعقد بهورنو البلجيكية في أواسط جويلية 1954م[6].

كان قادة المنظمة على اطلاع بالأوضاع الداخلية المتمثلة في طبيعة السياسة الاستعمارية المبنية على القمع وتزوير الانتخابات، وبخاصة في عهد الحاكم العام "نيجلان" الذي سخّر أعوان الإدارة

والقياد الخاضعين لها بالضغط على الجزائريين، وكذلك الظروف الدولية المؤيدة للأفكار التحررية في البلدان المستعمرة، حيث تمّ تكليف ستة من القادة الثوريين وثلاثة آخرين المتواجدين في الخارج بتحديد التاريخ والمكان[7] للعمليات الثورية الأولى في أكتوبر 1954م.

يدفعنا ذلك إلى التأكيد على القناعة الراسخة لدى هؤلاء القادة الأوائل لثورة نوفمبر بالعمل الثوري التحرري، وأنهم قرروا الابتعاد نهائيا عن الطرفين المتصارعين، والسير قدما نحو العمل المسلح لإرباك العدو في عقر داره. ذلك ما ورد في بيان أول نوفمبر:

"أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا... أمام هذه الوضعية التي يخشى أن تصبح من المحال علاجها، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوضعها فيه صراع أغلب الأشخاص والتأثيرات لدفعها إلى المعركة الثورية..."[8].

وبالرجوع إلى عمالة وهران، نجد هذه الأخيرة تعاني من انقسامات داخلية بين أنصار الزعيم "مصالي الحاج" الذين كان لهم تواجد قوي في المدن الكبرى مثل تلمسان ووهران ومستغانم وسيدي بعباس وتيارت وغيرها من البلدات الأخرى... في حين أصرّ بعض أعضاء اللجنة المركزية على الوقوف إلى جانب قيادتهم "عبد الرحمان كيوان ولحول حسين"، وفي اتجاه أخر ظلّ العديد من الشباب المتحمس، حائرا ينتظر الأوامر من قادته لمباشرة العمل الثوري.

في هذه الظروف الحساسة، قامت اللجنة التحضيرية لأول نوفمبر بعمل جاد بالمنطقة بتكوين قيادة أركان مصغرة وكسب انخراط أعضاء جدد والتمويل بالأسلحة، حيث تمّ تكليف ثلاثة قادة رئيسيين وهم العربي بن مهيدي بوهران، وعبد الحفيظ بوصوف بتلمسان، وبن عبد المالك رمضان بمستغانم[9]، وكان لكل قائد مجموعة خاصة به من القيادات الصغرى المتمثلة في الحاج بن علي وأحمد زبانة بوهران وسيدي بلعباس، وتمّ تكليف فرطاس محمد العائد من باريس بعين تموشنت، برفقة بعض المناضلين أبرزهم كويني؛ والإخوة برجي اعمر وقدور في ناحية مستغانم، ويليس بحجاج وصحراوي عبد القادر وبومهدي الزروقي وبلحميتي بن ذهيبة في كسان (سيدي علي) حاليا[10]، وآخرون من حجاج (بوسكي) وسيدي لخضر (لاباسي) أمثال دوار الميلود؛ دون أن ننسى المناضلين الآخرين من الدرجة الثانية في قيادة الثورة.

وقامت قيادة الأركان بالولاية الخامسة برئاسة العربي بن مهيدي إلى جانب بن عبد المالك رمضان الذي فرّ إلى منطقة الغرب الجزائري لمواصلة النضال والتحضير لثورة مسلحة، هربا من مضايقة

الاستعلامات الفرنسية، وعقد مع قادة آخرين اجتماعا هاما من أجل انطلاق العمل المسلح في الغرب الجزائري ليلة 30 أكتوبر1954م بمنزل المدعو بوحو بشارع المسجد بحي الدرب بوهران، حيث تم توزيع المهام بعد تقسيم القطاع الوهراني إلى خمسة مناطق عسكرية كالآتي:

المنطقة الأولى: أوكلت مهمتها لعبد الحميد بوصوف المدعو مبروك.

المنطقة الثانية: أوكلت مهمتها لفرطاس محمد المدعو إبراهيم.

المنطقة الثالثة: أوكلت مهمتها للحاج بن علا المدعو منصور.

المنطقة الرابعة:أوكلت مهمتها لابن عبد المالك رمضان المدعو عبد الله.

المنطقة الخامسة: أوكلت مهمتها لأحمد زبانة المدعو حميدة.

وكانت هذه المنطقة واسعة جدا تمتد من الحدود المغربية إلى دائرة الأصنام سابقا شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى غاية حدود الصحراء جنوبا. وكان الهدف واضحا، تمثل في التحضير الجيد من أجل خوض معركة أول نوفمبر، والاستعداد الفعال لكي تكون المنطقة مع الحدث البارز، وإسماع الآخرين بوجود جزائريين رافضين للاستعمار، رغم قلّتهم في المنطقة نظرا لعوامل عديدة سنرجع لها لاحقا.

ولكن الإيمان بنجاح العملية كان قويا كقناعة بن مهيدي في مقولته المشهورة "القوا بالثورة في الشارع سيحتضنها الشعب".

2- العمليات الأولى لفاتح نوفمبر بعمالة وهران:

أ- طبيعتها: سبق أن أشارنا إلى التحضيرات العامة لثورة أول نوفمبر في الجزائر من خلال العديد من الدراسات والمصادر المعاصرة لتلك الفترة، بأن المنطقة الخامسة، لم تتخلف عن إطلاق الرصاصات الأولى في الفاتح نوفمبر، بل اضطرّ مجاهدو هذه المنطقة في ناحية الظهرة إلى أطلاق النار يوم 31 أكتوبر1954م على الساعة 23 و45 دقيقة، وذلك ما أوردته الجرائد الاستعمارية في الجزائر والمتروبول الصادرة يوم الثاني والثالث من نوفمبر مثل إيكو دورون وإيكو دالجي التي كتبت عن حدوث تفجيرات إرهابية من فيليبفيل شرقا إلى كسان غربا[11].

وتم تأكيد ذلك أيضا من خلال شهادة المجاهدين الأحياء والمتوفين منهم في عدّة مناسبات أثناء إحياء ذكرى أول نوفمبر[12].

وقد تناولت عدّة دراسات تاريخية وجرائد وطنية، حدث انطلاق العمليات الأولى بتعمق، مستشهدة بالأرشيف الحي للمجاهدين ووسائل الإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني من خلال البيانات والمنشورات[13].

وسنتطرق لطبيعة العمليات الأولى وأهميتها في المنطقة، من خلال التقارير الأمنية وتحليلات صحافة المعمرين، وشهادة المجاهدين الأحياء، ومن هذا المنطلق فالمنطقة قد عرفت تحضيرا جيدا لهذا اليوم المشهود؛ رغم قلّة الإمكانات اللوجستيكية والبشرية، حيث لم يتجاوز عدد المجاهدين الأوائل الستين مجاهدا، لكن النشاط الدؤوب للعربي بن مهيدي في جولاته المراطونية بالاجتماع مع القيادات المحلية بوهران وبالظهرة، أفلحت في تحديد الساعة والمكان.

فالعمليات الأولى حددت بدقة وعناية حسب الإمكانات المتاحة، وترك العمل مفتوحا للقيادات المحلية حسب ظروف نشاطها وتحركها الميداني؛ منها حرق مزارع المعمرين ومحطات البنزين، ومهاجمة الثكنات العسكرية ومخافر الدرك الفرنسي، وجمع الأسلحة، دون المساس بالمدنيين في المرحلة الأولى.

وبهذا الشكل جاءت التوصيات الأولى لقيادة أركان المنطقة، بهدف تحقيق الصدمة لدى الإدارة الاستعمارية وإحداث المفاجأة.

ولهذه الغاية تمّ تنظيم هذه العمليات كالأتي[14]:

- تمّ تكليف مجموعة بن علي وزبانة بالاستيلاء على أسلحة ثكنة إكميل بوهران.
- الاستعداد لحرق محطة البنزين بواسطة المتفجرات التي كان يصنعها الشهيد زبانة.
- وكان مقررا تنفيذ هجوم واسع على ثكنة حمام بوحجر.
- كلف فرطاس بالعمل على إحداث انحراف خط السكة الحديدية وهران– عين تموشنت.
- أمّا بمنطقة الظهرة بمستغام فقد كلّفت عدّة مجموعات محلية بقيادة أحد قادة أركان الناحية وعضو مجموعة 22 التاريخية للقيام بعمليات ثورية بالقسم الشرقي لدائرة مستغانم بالبلدية المختلطة بكسان" (سيدي علي حاليا).

وتمّ تأكيد نجاح بعض العمليات الثورية بناحية الظهرة من قبل عامل عمالة وهران السيد جون لامبار "Lambert" الذي تلقى مكالمة هاتفية من طرف نائب عامل دائرة مستغانم على الساعة الواحدة وأربعين دقيقة صبيحة عيد كل القدسيين المصادف للفاتح نوفمبر بأنه تمّ وقوع الأحداث الآتية:[15]

- حرق مزرعتين للمعمرين.
- مهاجمة مخفر درك "كساني".
- مقتل أوروبي واحد المدعو "فرانسوا لورانت".

وحسب روايات المجاهدين الأحياء فإن العمليات الثورية كانت جدّ ناجحة بالمنطقة نظرا لإشراف بن مهيدي بنفسه على تحضير اندلاع الثورة بالظهرة مع بن عبد المالك رمضان في اجتماع ضمّ القيادات المحلية أمثال الأخوين بُرْجي وبلحميتي بن ذهيبة وآخرون بمنطقتي الحشم القريبة من مستغانم وبغار سيدي يوسف ببلدة أولاد بوزيان بكسان، حيث تمّ توزيع المهام المتمثلة في جمع الأموال وشراء الأسلحة والتدريب عليها[16].

إضافة إلى هذا النجاح الذي أحرزته الثورة في المنطقة الخامسة، التي كانت تعرف بهدوئها وسيطرة المعمرين على أوضاعها، وانشغال الأهالي الجزائريين في العمل عندهم، حيث أثار انتباهنا الحادث المميز في المنطقة والمتمثل في مقتل أحد المستوطنين على الساعة الحادية عشر وخمس وأربعين دقيقة، وفي روايات أخرى الساعة 11 و30 دقيقة، ويعود سبب ذلك حسب هذه الروايات، إلى أن ذلك المستوطن شاهد المجاهدين متجهين نحو المزرعة، فحاول الإعلام عنهم فاضطرّت المجموعة إلى إطلاق النار على سيارة معمرين من بلدية خضراء (بيكار)، لكنهما تمكنا من التوجه نحو مقر درك "كساني" سيدي علي حاليا، حيث كانت مجموعة من الثوار تستعد لمهاجمة هذه الثكنة، فاضطرت إلى إطلاق النار على هذا المعمر الذي سبق لنا ذكر اسمه فأردته قتيلا.

في حين واصلت مجموعة وِليس (بن عبد المالك رمضان حاليا) متابعة إنجاز مهام إعطاب المولد الكهربائي بهذه الناحية، وحرق بعض مزارع المستوطنين ومحاصيلهم الزراعية.[17]

ب– أهدافها: كانت أهداف هذه الهجومات الأولية بالغرب الوهراني رغم قلّتها، إذا ما قورنت بمثيلتها في بقية نواحي القطر الجزائري، ذات بعد استراتيجي في شمولية الثورة وإعطاء المنطقة مكانة هامة ضمن عمليات الفاتح نوفمبر وإرباك العدو، ليستخلص العبر ويدرك أن عمليات عيد كل القدسيين الأحمر[18] مثل ما وصفه المؤرخ الفرنسي برنارد مشال، ليست عمليات محصورة في منطقة واحدة، وإنما تؤكد بأن هذا العمل الثوري، عمل جاد وجماعي نظرا لتشابه معظم العمليات الثورية (هجومات وتفجيرات وحرائق) في توقيت واحد وفي أماكن عديدة بالعمالات الثلاثة الجزائرية، وأكدت المصادر الرسمية الفرنسية حدوث بعض العمليات الإرهابية في مناطق متعددة من الجزائر[19].

وأكّد البيان الأول المنشور من قبل الوفد الخارجي بالقاهرة بتاريخ 15 نوفمبر 1954م: "بأنّ المستعمرين تفاجأوا ليلة الفاتح نوفمبر بحدوث عمليات فدائية بمختلف مناطق الوطن ما بين الواحدة والثانية صباحا، تمثلت في ضرب الوجود الاستعماري؛ ممثلا في الدرك والثكنات واقتصاد المعمرين المتمثل في حرق المزارع والمحاصيل الزراعية"[20].

مقارنة بين بيانات الإدارة الاستعمارية وبيان جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ندرك أهمية هذه العمليات العسكرية التي حدثت بالقطاع الوهراني، استجابة لنداء أول نوفمبر الذي نشر صبيحة يوم الاثنين، وأرسلت نسخ منه إلى الصحف ووكالات الأنباء، وأذيع من إذاعة القاهرة.

وترجع قصة تحرير هذا البيان إلى اجتماع القادة الستة يوم 24 أكتوبر 1954م بمنزل بقلب العاصمة الجزائر– حي رايس حميدو (بوانت بسكاد)، وتمّ تكليف محمد العيشاوي يوم 27 أكتوبر من نفس السنة بقرية إغيل أمولا في جرجرة بالقبائل الكبرى، بطباعة البيان بواسطة آلة راقنة[21]، حيث تمّ تحديد مبادئ وأهداف العمل المسلح الذي استجاب له نخبة من شباب منطقة الغرب الجزائري ملتزمين بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، تاركين وراءهم أهاليهم وأملاكهم في سبيل تحرير الوطن، وسقي أرض الأجداد بدمائهم، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا. ذلك ما اقتنع به المجاهد بلحميتي السابق ذكر الذي قال: "بأنّ الثورة اعتمدت على الشعب وفق تنظيم دقيق" يؤكده ما يلي[22]:

– تحديد اليوم وساعة التفجير.

– العمل الجماعي لتفادي أخطاء المنظمة الخاصة.

– شمولية الانطلاق لتفكيك قوّة الاستعمار.

إن العمليات الأولى حسب المؤرخ عمر كارليي "كانت طموحة وجريئة، رغم قلّة الإمكانات والرجال، إلاّ أنّ نتائجها الفعلية تبقى إلى حد ما ضعيفة"[23]، ويعود ذلك في نظرنا لجملة من الأسباب تمثلت في صعوبات الإمداد ونقص الانخراط في العمل الثوري في بداية العمل المسلح.

3– الصعوبات التي واجهت العمليات الثورية الأولى بالمنطقة الخامسة: من خلال تتبعنا لأحداث العمليات الأولى بالمنطقة يتبين لنا أنّ حركة التمرد حسب التعبير الاستعماري، استطاعت اختراق الإجراءات الأمنية الفرنسية وقوانينها الردعية المسلطة على الجزائريين، والتجاوب مع الوضع العام لحركة الثورة في مسارها التاريخي الذي ضبط بيوم 01 نوفمبر 1954م.

وأصيبت الجرائد الاستعمارية المحلية والباريسية، الصادرة فيما بعد، بالهلع والذهول لمجرى العمليات، واتساع نطاقها من خلال ما ورد في البرقيات الرسمية للحاكم العام.

وراحت تحلل الأوضاع من وجهات نظر مختلفة، موضحة للرأي العام، ميزان القوى بين الجيش الفرنسي وسيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان وتوجيهها لهم من جهة؛ ومجموعة قليلة من الخارجين عن القانون من جهة ثانية.

ومن هذا المنطلق: "فإنّ الثورة بالمنطقة الخامسة، قد واجهتها عدّة صعوبات، فرغم انطلاقة الثورة الجيدة والخراط الآلاف فيها، فإن هذا العدد لا يمثل أكثر من حفنة من الرجال إذا ما تمت مقارنتهم بعدد خصومهم، وما يتوفر لهؤلاء الخصوم من إمكانات"[24].

ويعود ذلك إلى طبيعة الثورة التي اعتمدت على عدد قليل من المناضلين الأوائل بسبب الأزمة التي أصابت حركة الانتصار للحريات الديمقراطية بمنطقة الغرب الجزائري بسبب سيطرة الطرفين المتصارعين على مكاتب الحزب، حيث أخّر ذلك في نظرنا النشاط الثوري بالمنطقة، وبخاصة بعد اعتقال بعض زعماء المنظمة الخاصة من أمثال أحمد بن بلة وبوشعيب على إثر الهجوم على بريد وهران، ووجود حمو بوتليليس في السجن؛ وخروج أحمد زبانة متأخرا من السجن حيث لم يحدث ذلك إلاّ في سنة 1953م.

تبين لنا هذه الوقائع التاريخية قلة الرجال الممارسين للعمل الثوري في بداية الثورة، مما أدى بقيادة الثورة المنبثقة عن اجتماع جوان 1954م إلى تبني استراتيجية تعويض هذا النقص بتكليف قادة تاريخيين بارزين مسؤولين على المنطقة الخامسة، وهم العربي بن مهيدي قائدا بوهران وعبد الحفيظ بوصوف بتلمسان، وبن عبد المالك رمضان بمستغانم نائبين له.

ويعود ذلك في نظرنا إلى اكتشاف المنظمة الخاصة، وتسليط العقوبات الصارمة على أعضائها من قبل الإدارة الاستعمارية، المتمثلة في سجن العديد منهم؛ وظلّ آخرون يعملون في السرية بعدين عن أنظار الاستعلامات الفرنسية، ومن جهة أخرى، تتضح لنا مدى قوة سيطرة الإدارة الاستعمارية على السكان الجزائريين، لتواجد بلديات كاملة الصلاحيات التي يرأسها رئيس بلدية أوربي مستغلة الجزائريين بشكل فادح، ومطبقة عليهم قوانين صارمة، رغم انتهاء العمل بقانون الأنديجانا سنة 1944م؛ وبلديات مختلطة يرأسها حاكم إداري، كان يرهب السكان من خلال الجهاز الإداري والأمني التابع له والمكون من حراس البلدية والقياد بالأرياف، وجهاز أمني من شرطة ودرك في البلديات، وجهاز استعلاماتي قوي، حيث كان لممثل الإدارة الاستعمارية أعين في كل مكان[25].

وواجهت الثورة أيضا بالمنطقة صعوبات لوجيستيكية، منها نقص الإمداد بالأسلحة، وذلك بسبب المراقبة الصارمة للحدود الشرقية والغربية؛ بعد اكتشاف أعضاء من المنظمة الخاصة، وتلكؤ الإخوة المغاربة في إمداد بوصوف والعربي بن مهيدي بالأسلحة التي وعدوا بها، أدى ذلك بالوحدات الثورية في المنطقة إلى الاعتماد على النفس، حيث تمّ تكليف زبانة الخارج من السجن إلى صنع القنابل التقليدية[26].

واعتمدت مجموعات الظهرة بمستغانم على صناعة البارود وتحضير القنابل بواسطة أنابيب الماء، وجمع بعض الأسلحة عن طريق الشراء مثل بنادق موزار وبنادق صيد إيطالية الصنع وبعض المسدسات[27].

يدل ذلك في نظرنا على صعوبة التمويل بالأسلحة، والتقليل من حظوظ نجاح العمليات المبرمجة، يضاف إلى ذلك انفتاح المنطقة جغرافيا، رغم تواجد بعض الغابات والجبال والأودية التي كانت درعا واقيا لمجاهدي المنطقة. ولكن تواجد أراضي زراعية واسعة وثروات منجميه متنوعة، سمح بتوظيف يد عاملة جزائرية وتحسين بعض الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، مما أدى إلى صعوبة اختراق القيادات الثورية الأولى للجزائريين المنشغلين بشؤون حياتهم، أو هؤلاء المنغمسين في العمل السياسي العقيم.

ورغم صعوبة هذه الظروف، فإن منطقة وهران قد شهدت أعمالا ثورية، ذات قيمة معنوية ونفسية بالنسبة لعموم مناطق الوطن، وأذهلت القيادة الإدارية الحاكمة في الجزائر من حاكم عام وعامل العمالة ونوابه بدوائر العمالة، حيث قام رئيس جهازها التنفيذي المتمثل في الحاكم العام بإعطاء تعليمات صارمة لمنع تعاظم الثورة، وطمأنة السكان الجزائريين والتقرب منهم محاولا بذلك عزل الثورة عن العمق الشعبي[28].

ويدل هذا الاهتمام الحكومي في إصراره على قمع حركة التمرد بالقطاع الوهراني، ردا على بعض الدراسات والتقارير التي تحدثت عن تأخر العمليات الثورية بمنطقة وهران. ونشرت هذه الإشاعات أجهزة الاستعلامات الفرنسية[29]، للتقليل من شمولية الثورة واعتبارها مجرد أعمال إرهابية متفرقة، قامت بها مجموعات خارجة عن القانون، ولكن رد الفعل الفرنسي اتجاه الجزائريين بالمنطقة من خلال بيانات الإدارة الاستعمارية وأرشيف المجاهدين الأحياء يثبت لنا عكس ذلك.

4- رد الفعل الفرنسي على العمليات الثورية الأولى بالعمالة: لقد كانت العمليات الثورية الأولى زهيدة بالمنطقة الخامسة وهران، حسب العديد من الدراسات لعوامل عديدة سبق التطرق لبعضها، ولكن قوة رد الفعل الفرنسي على العمليات الأولى برهن لنا على انتشار لهيب الثورة بشكل مباشر وألحق خسائر بشرية ومادية في صفوف القوات الاستعمارية، وقد دفع ذلك أجهزة الاستعلامات الاستعمارية إلى شن حملة مداهمة لمعظم العناصر المنتمية لحركة الانتصار واعتقالهم.

وفي مرحلة لاحقة، تمكنت هذه الأجهزة من إبطال مفعول انفجار القنابل بالعديد من مناطق الولاية الخامسة، وتمّ القبض على معظم المنفذين للعمليات الأولى، ففي ناحية الظهرة استشهد ابن عبد المالك رمضان يوم 04 نوفمبر1954م، وقبض على المجاهدين الآخرين، وسجنوا في مستغانم ووهران

والبرواقية، حيث التقى هؤلاء المجاهدين بزملاء لهم من مناطق أخرى، من ذلك ما ذكره أحد المجاهدين (بلحميتي) حيث قال بأنه التقى برابح بيطاط وتعرّف عليه[30]، وفي نفس الوقت ذكر المجاهد بومهدي زروقي أحد الأعضاء القياديين في الهجوم على مراكز الاستعمار ليلة الفاتح نوفمبر في ندوة تاريخية، بأن جهاز الاستعلامات الفرنسي عند استنطاقه له ولزملائه لم يتعرف على هوية المجموعات المنفذة، واعتقد أنها تنتمي إلى حركة الانتصار، وأضاف المجاهد قائلا: "إنني حمدت الله على ذلك"، وهو يسمع هذا الحديث من أحد المحققين من زنزانته[31].

أما بوهران وضواحيها فلم تتم العمليات بسبب أخطاء تقنية واكتشاف العدو لها مبكرا، وتريث المجموعات المكلفة بالمهام المسندة لها بسبب ذلك، في حين تم القبض على البطل أحمد زبانة في اشتباك مع الجيش الفرنسي يوم 08 نوفمبر1954م، وتم إعدامه بواسطة المقصلة في 19 جوان سنة 1956م، وتمكن بن مهيدي من الإفلات من الجيش الفرنسي، واتجه مع بوصوف إلى الحدود الغربية لإعادة تنظيم الثورة من جديد[32].

وتم متابعة السكان القريبين من مزارع المعمرين بعين تموشنت، والقبض على معظم المجاهدين، واستخدمت أجهزة الأمن الفرنسية للوهلة الأولى، تقنيات التعذيب ضد المقبوض عليهم محاولة منها انتزاع الاعترافات منهم؛ بهدف التعرف على الرؤوس المدبرة، وتمّ تحويلهم إلى سجون انفرادية.

ومن هذا المنطلق قامت هذه الأجهزة الأمنية بحملة قمع واسعة النطاق، في حق المناضلين والمشتبه فيهم بما فيهم أنصار الزعيم مصالي الحاج، وذلك تطبيقا لتعليمات وتصريحات المسؤولين الفرنسيين الذين ذكروا بأن هؤلاء المجاهدين، إنما هم عناصر متمردة لا تخضع للقانون العسكري الدولي، ذلك ما صرّح به فرنسوا ميتران وزير الداخلية الفرنسي بعد عشرة أيام من عيد القدسيين سنة 1954م حيث قال: "ينبغي معاملة المتمردين كجانحين ومجرمي القانون العام"[33]، ومما يؤكد سياسة القمع الفرنسية التقارير الواردة من السجون الممتلئة بالجزائريين، رغم قلة العدد المهاجم في الفاتح نوفمبر إضافة إلى التجاوزات المرتكبة من قبل الأجهزة المختصة في اعتقال الجزائريين، وقيام المستوطنين بأعمال انتقامية في حق السكان العزل[34].

الخاتمة: إن تطرقنا لهذا الموضوع الحساس والدقيق الخاص باندلاع ثورة التحرير بالمنطقة الخامسة تكمن أهميته في القراءة السياسية والنفسية لهؤلاء الأبطال المجاهدين الذين تحركوا من معتقداتهم الخاصة، بتحرير الوطن والاستشهاد في سبيل الله حيث جمعوا بين المعتقدات الوطنية والدينية متشبعين بثقافة التحرر، جعلتهم يفضلون مصلحة الوطن فوق مصالحهم الذاتية، مبرهنين على عبقرية الجزائريين

في الالتحاق بصفوف الثورة. وبأن هذه الأخيرة ذات صبغة وطنية، وليست جهوية بدليل ترأس منطقة وهران من طرف قيادات من الشرق الجزائري.

ويدل نجاح العمليات الأولى أيضا على الطاعة والانضباط التي كان يتمتع بها هؤلاء الثوار، ذلك ما ذكره أحد المجاهدين، حين قال بأنه شاهد بن عبد المالك رمضان غاضبا وهو يخاطب أحد رفاقه المدعو فؤاد السبع قائلا له: "إنني من الشرق، وأتمنى أن أستشهد عندكم في الغرب"؛ فردّ عليه المجاهد سابق الذكر "أنا من الغرب بمستغانم، وأتمنى الاستشهاد عندكم في الشرق"، وحسب نفس الرواية، فلقد تحققت أمنية الشهيدين[35].

إنه الإخلاص للوطن والوفاء للمبادئ التي تحرك من أجلها هؤلاء المجاهدين الذين تركوا ديارهم وأهاليهم، منتشرين في الجزائر العميقة، مفضلين الاستشهاد على حياة الذل والمهانة.

ونحتاج نحن اليوم، بدورنا إلى ذلك الأرشيف الحي لهؤلاء الشهداء والمجاهدين، لندون من خلالها صفحات خالدة من تاريخ جزائر العزة والكرامة.

الهوامش:

1–Bernard (Michal), Histoire du Drame Algérien,T1, 1954- 1956, ed Gremille , Genève, 1971, p 75.

2–Amiri (L), La Bataille de France, La Guerre D Algérie En France ,Chihab Edition , Alger, 2005, p34

3– العماد طلاس مصطفى والمقدم العسلي بسام، الثورة الجزائرية، دار الشورى بيروت، ط1، 1982، ص 75

4–Carlie (Omar), Le 1er Novembre1954 a Oran, Action Symbolique, Histoire Périphérique et Marqueur,·Histographyque in « la Guerre d'Algérie, 1954-1962 Présente Par Ageron (Ch A), ed, Armand Colin, C .R.N.S, Paris,1996 ,pp.8-9 Bernard(M), op cit, pp 76-77-5

وبخصوص هذا الموضوع، قد وقع التباس لدى هذا الباحث وباحثين آخرين أمثال، بن يوسف بن خدة وإيف كوريار حول قضية إشراك اللجنة الثورية للوحدة والعمل في تفجير الثورة، بينما شهادات صانعي الثورة من أمثال "بوضياف يؤكدون أن القرار والتحضير يرجع لمجموعة الاثنين والعشرين ولجنة الستة التي انبثقت عنها، ينظر:

صالح بلحاج، تاريخ الثورة الجزائرية، صانعو أول نوفمبر 1954، المواجهات الصغرى في المواجهات الكبرى، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2010، صص 121 – 131

6-Benkhada Benyoucef, Les Origines du 1ER Novembre 1954,Ed Dahleb,1989, pp 242-254

7– وأيضا بلحميتي بن ذهيبة، مجاهد من منطقة سيدي علي ولاية مستغانم، كان عضوا بارزا في حركة الانتصار والمنظمة الخاصة بالمنطقة، رفيق بن عبد المالك رمضان، وكان من مفجري الثورة بالمنطقة، أنظر الحوار الذي أجرته معه مجلة الظهرة لولاية مستغانم، نشرية شهرية 2012/11/01، حوار مع بلحميتي محمد المدعوبن ذهيبة نوفمبر2003، ص ص 10–11وانظر أيضا، جريدة الخبر ليوم،

Archives de La Wilaya de Mostaganem, boite N°05,<<Discours Edward Naegelan En Algérie 1948.

8– بيان أول نوفمبر 1954، جبهة التحرير الوطني الأمانة العامة.

9–Carlier (O), op cit ,p12

10– بلحميتي بن ذهيبة، مرجع سابق ص ص، 10–11.

11–Echo D'Oran, 02 /1101954

12– بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق ص ص10–11

13–Carlier (O), op cit,p p 12

14–ibid, p13et, Quotidien(L) Oran, 1er Novembre 2008.et Réflexion, JournalMosteganemoi, 17 Novembre,2008

وورد ذلك أيضا في الحصة الإذاعية لمحطة مستغانم يوم أول نوفمبر 2006 بمشاركة الجاهدين بلحميتي وكويني

15–Bernard (M), op cit,p 102.

16 – بلحميتي بن ذهيبة، مصدر سابق، ص 11

17–Quotidien(L) Oran, 1er Novembre 2008

18- Bernard(M), op cit,p.79

19–Miloudi(M), « 1er Novembre, Fin D'Une Epoque Et Aube D'Une Nouvelle Ere », In Revue El Djeich Numéro Spécial, Novembre 1989p p, 23-27

20–Ibid pp, 23 – 27

21–Bernard(M), op cit,p93,et aussi, Quotidien (L) Oran, Le 01/11/200

22- بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، مصدر سابق صص 10– 11.

23– Carlier (O), op citp ,p13

24– العماد طلاس مصطفى والمقدم العسلي بسام العسلي، مرجع سابق، ص 86.

25–Historia Magazine « l'A.L.N, Année de libération nationale, une Rébellion, Souscrira » N° 201, 10 Novembre, 1971 p226-234.

26–Carlier (O), op cit, p 13

27– بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، مرجع سابق صص 10– 11.

28-Bernard (M), op cit,p p, 105-106

29– طلاس، العسلي، مرجع سابق، ص 228.

30– بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، مصدر سابق صص 10– 11

31– ندوة تاريخية تم تنظيمها في ثانوية "دار عبيد عبد الحميد" بسيدي علي ولاية مستغانم، في 31 أكتوبر سنة 1994م، وحضرها جمع من المجاهدين والسلطات المحلية أمام تلامذة هذه الثانوية للتذكير بأبطال أول نوفمبر

وانظر أيضا: – رابح لونيسي: "الحرب المخابرتية أثناء الثورة المسلحة"، مجلة عصور الجديدة، العدد 6، عدد خاص بخمسينية الاستقلال، صيف 2012، صص 188 –202

32-Carlier (O), op cit, P14

33–Thenaut (S), « La Justice dans la Guerre D'Algérie >>In la Guerre-D'Algérie, 1954-1962 Dirigée Par Ageron (Ch ; A), ed, Armand Colin, C .R.N.S, Paris,1996 p 78

34–ibid, p79 .

35– بلحميتي بن ذهيبة في مجلة الظهرة، ؛مرجع سابق صص 10– 11. وأيضا بجريد الخبر 2012/11/01